السُّكونُ وما يُسكَنُ إليهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل: 80][1]، ويقالُ: سَكَنْتُ إلى فلانٍ، أي: استأنستُ بهِ، ولا تَسْكُنُ نَفْسي إلى غيرِهِ[2].

4) ﴿دَلِيلٗا﴾: (دلل) أصلانِ: أحدُهما: اضطرابٌ في الشَّيءِ، والآخرُ: إبانةُ الشَّيءِ بأَمارةٍ تتعلَّمُها، فمِنَ الأوَّلِ قولُهم: تدلدلَ الشَّيءُ، أي: اضطربَ، ومِنَ الثّاني قولُهم: دَلَلْتُ فلانًا على الطَّريقِ[3]، ويجمع ذلك أصلٌ واحد، وهو امتداد الشَّيءِ من أعلى إلى أسفل[4]، والاضطراب سببٌ في الامتداد، وامتداد الشَّيء وضوحٌ له وإبانة، والدَّلالةُ: ما يُتوصَّلُ بها إلى معرفةِ الشَّيءِ، كدلالةِ الألفاظِ على المعاني، ودلالةِ الإشاراتِ، والرُّموزِ، والكتابةِ، والعُقودِ في الحِسابِ، وسواءٌ كانَ ذلكَ بقصدٍ ممَّنْ جعلَهُ دلالةً، أو لم يكنْ بقصدٍ، كمَنْ يرى حركةَ إنسانٍ، فيعلمُ أنَّهُ حيٌّ، قالَ ﷺ: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ [سبأ: 14]؛ لأنَّ الأَرَضةَ لم تقصدْ ذلكَ[5]، والدَّليلُ: ما يُستدلُّ بهِ[6].

5) ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾: (قبض) القبضُ جمعُ الكفِّ بشدَّةٍ على الشَّيءِ المأخوذِ؛ إمساكًا لهُ[7]، كقَبْضِ السَّيفِ وغيرِهِ، والقبضةُ: ما قَبَضْتَ عليهِ مِنَ الأشياءِ، يقالُ: أعطاهُ قبضةً مِنْ سَويقٍ أو تمرٍ[8]، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: 96]، وقَبْضُ اليدِ على الشَّيءِ: جمعُها بعدَ تناولِهِ، وقَبْضُها عنِ الشَّيءِ: جمعُها قبلَ تناولِهِ، وذلكَ إمساكٌ عنهُ، ومنهُ يقالُ لإمساكِ اليدِ عنِ البذلِ: قَبْضٌ، كما في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67]، أي: يمتنعونَ مِنَ الإنفاقِ، ويُستعارُ القَبْضُ لتحصيلِ الشَّيءِ، وإنْ لم يكنْ فيهِ مراعاةُ الكفِّ، كقولِكَ: قَبَضْتُ الدّارَ مِنْ فلانٍ، أي: حُزْتُها، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ معناهُ: نسَخْنا الشَّمسَ بالظِّلِّ، وجعَلْناهُ مكانَها[9].

---

(1) الراغب، المفردات: (سكن).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دلل - دلدل).
(5) الراغب، المفردات: (دلل)، والسمين، عمدة الحفاظ: (دلل).
(6) الجوهري، الصحاح: (دلل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبض)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قبض).
(8) الجوهري، الصحاح: (قبض).
(9) الراغب، المفردات: (قبض)، والسمين، عمدة الحفاظ: (قبض).

6) ﴿يَسِيرًا﴾: (يسر) اليُسْرُ: ضدُّ العُسْرِ، وهو سريان شيءٍ رقيق بلطف واتِّصال[1]، قالَ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ويقالُ: تيسَّرَ كذا، واستيسرَ، أي: تسهَّلَ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196]، وقالَ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20] أي: تسهَّلَ وتهيَّأَ، واليسيرُ والميسورُ: السَّهْلُ، ويُطلَقُ اليسيرُ أيضًا على الشَّيءِ القليلِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ألم ترَ - أيُّها النَّبيُّ - كيفَ مدَّ ربُّكَ الظِّلَّ، وهو ما بينَ طُلوعِ الفجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاءَ؛ لجعلَهُ دائمًا لا يزولُ، ممدودًا لا تُذهِبُهُ الشَّمسُ، ولا تُنقِصُهُ، ثمَّ دلَلْناكُم بنَسْخِ الشَّمسِ إيّاهُ عندَ طُلوعِها عليهِ أنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ ربِّكم، يوجِدُهُ؛ إذا شاءَ، ويُفنيهِ؛ إذا أرادَ، ثمَّ قبَضْنا ذلكَ الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبْضًا خفيًّا سريعًا بالفيءِ الَّذي نأتي بهِ بالعَشيِّ[3].

الظِّلُّ نعمةٌ جليلةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ ﷻ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الآيةَ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو انتقالٌ مِنْ إثباتِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ، وإثباتِ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ المُنْزَلُ على رسولِهِ، وصفاتِ الرُّسُلِ وما تخلَّلَ ذلكَ مِنَ الوعيدِ، وهو بهذا الاعتبارِ متَّصلٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32]، وفيهِ انتقالٌ إلى الاستدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوحدانيَّةِ للهِ سبحانَهُ، وهو بهذا الاعتبارِ متَّصلٌ

الانتقالُ من إثباتِ صِدقِ الوحي إلى إثباتِ بُطلانِ كفرِهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يسر).
(2) الراغب، المفردات: (يسر)، والسمين، عمدة الحفاظ: (يسر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 275 - 277.

بقولِهِ في أوَّلِ السّورةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ۝٣﴾ [الفرقان: 3][1].

غرضُ الاستفهامِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الاستفهامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ للتَّقريرِ، والمعنى: ألم تَنْظُرْ إلى بديعِ صُنْعِهِ تعالى[2]، أي: قد رأيتَ، أو قد انتهَى علمُكَ[3]، والاستفهامُ صالحٌ لطبقاتِ السّامعينَ: مِنْ غافلٍ يُسألُ عن غفلتِهِ ليُقِرَّ بها؛ تحريضًا على النَّظرِ، ومِنْ جاحدٍ يُنكَرُ عليهِ إهمالُهُ النَّظرَ، ومِنْ موفَّقٍ يُحَثُّ على زيادةِ النَّظرِ[4].

الاستفهامُ للتَّقريرِ والتَّأكيد

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالرُّؤيةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، ويُرادُ بها وجهانِ: **أحدُهما**: أنَّها مِنْ رؤيةِ العينِ، والمعنى: (ألم تَنْظُرْ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ؟)[5] **والثّاني**: أنَّها مِنْ رؤيةِ القلبِ، يعني: العِلمَ، والمعنى: (ألم تَعْلَمْ؟)[6].

اتِّساعُ المعاني لكون الرُّؤية بصريَّة أو قلبيَّة

تعيينُ المُخاطَبِ في قولِهِ: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الخطابُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ لرسولِ اللهِ ﷺ[7]، بحسَبِ ظاهرِ اللَّفظِ، ولكنَّ الخطابَ عامٌّ في المعنى؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الآيةِ بيانُ نِعَمِ اللهِ تعالى بالظِّلِّ، وجميعُ المكلَّفينَ مشتركونَ في أنَّهُ يجبُ تنبُّههم لهذهِ النِّعمةِ، وتمكُّنُهم مِنَ الاستدلالِ بها على وجودِ الصّانعِ جلَّ شأنُهُ[8].

الأصلُ في خطاب القرآن أن يكون عامًّا إلّا إذا خصَّص

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 110.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 39.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 37.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 26.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

تضمينُ الفعلِ معنى النَّظرِ أو معنى الانتهاءِ

إذا كانَتِ الرُّؤيةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بصريَّةً؛ فكلمةُ ﴿إِلَىٰ﴾ الدّاخلةُ على المرئيِّ مبنيَّةٌ على تضمينِ الرُّؤيةِ معنى النَّظرِ[1]، والمعنى: ألم تَنْظُرْ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ؟

وإذا كانَتِ الرُّؤيةُ قلبيَّةً؛ فالتَّعبيرُ بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ لتضمُّنِ الفعلِ معنى الانتهاءِ[2]، والمعنى: ألم يَنْتَهِ علمُكَ إلى كيفيَّةِ مدِّ ربِّكَ للظِّلِّ؟

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

التَّعبيرُ بالوصفِ الدّالِّ على الإحسانِ

التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ ما يَعْقُبُهُ مِنْ آثارِ رُبوبيَّتِهِ ورحمتِهِ تعالى[3]، فيكونُ ملائمًا لمقامِ الامتنانِ بنعمةِ الظِّلِّ، ومقامِ إقامةِ الدَّليلِ على قُدرةِ اللهِ ﷻ، وفي التَّعبيرِ بهِ أيضًا تشويقٌ إلى إدامةِ النَّظرِ إليهِ، والإقبالِ عليهِ، والمعنى: ألم تَنْظُرْ إلى المُحسنِ إليكَ، أي: ألم تَنْظُرْ إلى فعلِهِ[4]، وفي ذلك توجيهُ الإنسانِ إلى المنعمِ قبل توجيههِ إلى النِّعمةِ؛ إذ لم يقل: (ألم ترَ إلى مدِّ ربِّك الظلَّ).

نكتةُ إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِهِ ﷺ:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ في قولِ اللهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى ضميرِهِ ﷺ؛ لتشريفِهِ ﷺ[5]؛ لِما تُشيرُ إليهِ هذهِ الإضافةُ مِنْ كونِهِ ﷺ مَحَطَّ عنايةِ اللهِ تعالى ورعايتِهِ.

سرُّ توجيهِ الرُّؤيةِ إليهِ ﷺ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾:

مَطْمحُ أنظارِهِ ﷺ معرفةُ الصّانعِ قبل معرفةِ الصَّنعةِ

أصل قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: ألم تَنْظُرْ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ، فغُيِّرَ النَّظمُ إشعارًا بأنَّ المعقولَ مِنْ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 39.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 295.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 27.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 397.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 27.

الكلام، كالمحسوسِ المُشاهَدِ المرئيِّ؛ لوضوحِ بُرهانِه، وهو دلالةُ حدوثِهِ وتصرُّفِهِ على الوجهِ النّافعِ بأسبابٍ مُمكِنةٍ، على أنَّ ذلكَ فعلُ الصّانعِ الحكيمِ[1].

ولو قيلَ: ألم ترَ إلى الظِّلِّ كيفَ مدَّهُ ربُّكَ؛ لكانَ الانتقالُ مِنَ الأثرِ إلى المُؤثِّرِ، والَّذي عليهِ النَّظمُ عكسُهُ، والمقامُ يقتضيهِ؛ لأنَّ الكلامَ في تقريعِ القومِ وتجهيلِهم في اتِّخاذِهم الهوى إلهًا معَ وضوحِ هذهِ الدَّلائلِ، ولذلكَ جُعِلَ ما يدلُّ على ذاتِهِ مُقدَّمًا على أفعالِهِ في سائرِ آياتِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾، وقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، ولذلكَ قالَ بعضُهم: مُخاطَبةُ العامِّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17]، ومُخاطَبةُ الخاصِّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[2].

أو أنَّ توجيهَ الرُّؤيةِ إليهِ ﷺ في قولِهِ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ معَ أنَّ المرادَ تقريرُ رؤيتِهِ ﷺ لكيفيَّةِ مدِّ الظِّلِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نظرَهُ ﷺ غيرُ مقصورٍ على ما يُطالِعُهُ مِنَ الآثارِ والصَّنائعِ، بل مَطْمَحُ أنظارِهِ معرفةُ شؤونِ الصّانعِ المجيدِ جلَّ شأنُهُ[3].

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه:

المقصودُ من الخِطاب توجيهُ العباد للنَّظر إلى آيات الله تعالى

في قولِ الباري جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ مضافٌ مُقدَّرٌ حُذِفَ، وأُقيمَ المضافُ إليهِ مقامَهُ، أي: ألم تَنْظُرْ إلى صُنْعِ ربِّكَ؛ لأنَّهُ ليسَ المقصودُ رؤيةَ ذاتِ اللهِ ﷻ[4]، وإنَّما المقصودُ النَّظرُ إلى آياتِ اللهِ تعالى.

إعرابُ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾:

اتِّساعُ اللَّفظ لعدد من المعاني لاختلاف أوجه الإعراب

اختُلِفَ في إعرابِ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 244.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 244.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 26.

﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فقيلَ: ﴿كَيْفَ﴾ سؤالٌ عن حالٍ في موضعِ نصبٍ بـ ﴿مَدَّ﴾، والجملةُ في موضعِ متعلِّقِ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لأنَّ ﴿تَرَ﴾ معلَّقةٌ، والجملةُ الاستفهاميَّةُ الَّتي هي معلَّقٌ عنها فعلُ القلبِ ليسَتْ باقيةً على حقيقةِ الاستفهامِ، والمعنى: ألم ترَ إلى مدِّ ربِّكَ الظِّلَّ[1].

وقيلَ: ﴿كَيْفَ﴾ مُنسلخةٌ عنِ الاستفهاميَّةِ، وهي بمعنى الحالِ، منصوبةٌ، والتَّقديرُ: (مدَّ الظِّلَّ على أيِّ حالٍ شاءَهُ)، أو (مدَّهُ على حالٍ غريبةٍ لطيفةٍ)، والجملةُ بيانٌ لصنيعِهِ تعالى[2].

وقيلَ: ﴿كَيْفَ﴾ مُجرَّدةٌ عنِ الاستفهامِ، وهي اسمٌ دالٌّ على الكيفيَّةِ، فهي في محلِّ جرٍّ بدلُ اشتمالٍ مِنْ ﴿رَبِّكَ﴾، والتَّقديرُ: (ألم ترَ إلى ربِّكَ إلى هيئةِ مدِّهِ الظِّلَّ)[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿مَدَّ﴾:

في التَّعبيرِ عنِ المدِّ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مدَّ الظِّلِّ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وهو أمرٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ لجميعِ النَّاسِ، فلا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليهِ.

المحسوسُ المشاهدُ لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه

المرادُ بمدِّ الظِّلِّ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، معناهُ: كيفَ خلقَهُ ممتدًّا عندَ ابتداءِ طلوعِ الشَّمسِ، وفي ذلكَ مزيدُ تعجيبٍ مِنْ هذا الخلقِ وتفخيمٍ لهُ، وتعظيمٍ لقدرةِ الخالقِ سبحانَهُ، وليسَ المرادُ أنَّهُ مدَّهُ بعدَ أنْ لم يكنْ ممتدًّا، كما يحصلُ بعدَ نصفِ النَّهارِ إلى غروبِ الشمسِ، فإنَّ هذا المعنى لا يوافقُ السّياقَ، وليسَ فيهِ تصريحٌ بخلقِ اللهِ للظِّلِّ[4].

المرادُ إنشاءُ الظِّلِّ ممتدًّا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 111.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 108.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 40.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.

وقيلَ: في قولِهِ ﷻ: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ المدَّ في الأصلِ: بَسْطُ الشَّيءِ المُنقبِضِ المتداخلِ، يقالُ: مدَّ الحَبْلَ، ومدَّ يدَهُ، ويُطلَقُ على الزّيادةِ في الشَّيءِ على سبيلِ الاستعارةِ، وهي استعارةٌ شائعةٌ، والمرادُ بهِ هنا: الزّيادةُ في مِقْدارِ الظِّلِّ[1].

سرُّ إطلاقِ مدِّ الظِّلِّ على تحرُّكِهِ:

تسميةُ الشَّيءِ باسمِ مُلابسِهِ أو سببِهِ

قيلَ: معنى قولِهِ سبحانَهُ: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: جعلَهُ يمتدُّ، وينبسطُ، فينتفعُ بهِ النّاسُ، سُمّيَ انبساطُ الظِّلِّ وامتدادُهُ تحرُّكًا منهُ، وسُمّيَ عدمُ ذلكَ سُكونًا[2]، فيكونُ إطلاقُ مدِّ الظلِّ وبَسْطِهِ على الحركةِ مِنْ بابِ تسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُلابسِهِ أو سببِهِ[3].

سرُّ العُدولِ عن (مُتحرِّكًا) إلى ﴿مَدَّ﴾:

دَمْجُ معنى معرفةِ أوقاتِ الصَّلَواتِ

قيلَ: عُدِلَ عن (مُتحرِّكًا) إلى ﴿مَدَّ﴾، معَ أنَّهُ أظهرُ مِنْ ﴿مَدَّ﴾ في تناولِهِ الانبساطَ والامتدادَ؛ ليُدمَجَ فيهِ معنى الانتفاعِ المقصودِ بالذّاتِ، وهو معرفةُ أوقاتِ الصَّلَواتِ، فإنَّ اعتبارَ الظِّلِّ فيها بالامتدادِ دونَ الانبساطِ، وتمَّمَ معنى الإدماجِ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أي: بالتَّدريجِ والمَهَلِ؛ لمعرفةِ السّاعاتِ والأوقاتِ[4].

المرادُ بالظِّلِّ في قولِهِ تعالى: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾:

احتمالُ اللَّفظِ معنيَيْنِ

اختُلِفَ في المرادِ بالظِّلِّ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فقيلَ: الظِّلُّ هو الأمرُ المُتوسِّطُ بينَ الضَّوءِ الخالصِ وبينَ الظُّلمةِ الخالصةِ، وهو ما بينَ ظُهورِ الفجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، وكذا الكيفيّاتُ الحاصلةُ داخلَ السَّقْفِ وأفنيةِ الجُدرانِ، وهذهِ الحالةُ أطيبُ الأحوالِ؛ لأنَّ الظُّلمةَ الخالصةَ يكرهُها الطَّبْعُ، وينفُرُ عنها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 39.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 245.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 245.

الحِسُّ، وأمّا الضَّوءُ الخالصُ؛ فهو يبهرُ الحِسَّ البَصَريَّ، ويُفيدُ السُّخونةَ القويَّةَ، وهي مُؤذيةٌ.

وقيلَ: لمّا خلقَ اللّهُ الأرضَ والسَّماءَ والكواكبَ والشَّمسَ والقمرَ؛ وقعَ الظِّلُّ على الأرضِ، ثمَّ خلقَ سبحانَهُ الشَّمسَ دليلًا عليهِ؛ لأنَّهُ بحسَبِ حركاتِ الأضواءِ تتحرَّكُ الأظلالُ، فإنَّهما متعاقبانِ متلازمانِ، لا واسطةَ بينَهما، فبمِقْدارِ ما يزدادُ أحدُهما؛ ينقصُ الآخرُ[1].

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلظِّلَّ﴾:

تحتمل (أل) التعريفية العهدَ، أي: الظِّل المعروف المعهود، المرئي المشاهد، وتحتمل (أل) التعريفيَّة في ﴿ٱلظِّلَّ﴾ أن تكون للجنس، أي: مدَّ لكم جنس الظلِّ، وتحتمل أن تكونَ للاستغراق، فتفيد العمومَ بنوعيه: عموم الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء الظل، وكلَّ درجة من درجاته، أو عموم الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ الظِّلال.

اتِّساعُ المعنى لاحتمالِ إرادة العهدِ والجنس والاستغراق

براعةُ التَّمثيلِ في الآيةِ:

مدُّ الظِّلِّ وقَبْضُهُ تمثيلٌ لحكمةِ التَّدريجِ في التَّكويناتِ الإلهيَّةِ؛ ليكونَ هذا التَّمثيلُ بمنزلةِ كُبْرى القياسِ؛ للتَّدليلِ على أنَّ تنزيلَ القرآنِ مُنجَّمًا جارٍ على حكمةِ التَّدرُّجِ؛ لأنَّهُ أمكنُ في حصولِ المقصودِ، وذلكَ ما دلَّ عليهِ قولُهُ سبحانَهُ فيما سبقَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى تمثيلِ نُزولِ القرآنِ بظُهورِ شمسٍ في المواضعِ الَّتي كانَتْ مظْلَّلةً؛ إذ قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، فإنَّ حالَ النّاسِ في الضَّلالةِ قبلَ نزولِ القرآنِ تُشبَّهُ بحالِ امتدادِ ظُلمةِ الظِّلِّ، وصارَ ما كانَ مُظلَّلًا ضاحيًا بالشَّمسِ، وكانَ زوالُ ذلكَ الظِّلِّ تدريجيًّا حتَّى ينعدمَ الفيءُ، فنظمُ الآيةِ بما اشتملَ عليهِ مِنَ التَّمثيلِ أفادَ تمثيلَ هيئةِ تنزيلِ القرآنِ مُنجَّمًا بهيئةِ مدِّ الظِّلِّ مُدرَّجًا، ولو شاءَ؛ لجعلَهُ ساكنًا[2].

مـــدُّ الـــظِّـــلِّ وقَـبْـضُـهُ تمثيلٌ لحكمةِ التَّدريجِ في التَّكويناتِ الإلهيَّةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 464.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 38.

بلاغةُ الاعتراضِ في: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾:

الـدّلالـةُ على قـدرة الـلـه في إسداء نِعمِهِ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ بينَ المتعاطفين - وهما ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، و﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ للتَّنبيهِ مِنْ أوَّلِ الأمرِ على أنَّهُ لا مدخلَ للأسبابِ العاديَّةِ مِنْ قُرْبِ الشَّمسِ إلى الأُفُقِ الشَّرقيِّ على الأوَّلِ، أو قيامِ الشّاخصِ الكثيفِ على الثّاني، وإنَّما المُؤثِّرُ فيهِ حقيقةً المشيئةُ والقُدرةُ[1]، أو تكون فائدةُ الاعتراضِ التَّذكيرَ بأنَّ في الظِّلِّ مِنَّةً جليلة ونعمة عظيمةً[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(لو) في: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾:

الـدَّلالـةُ على امـتـنـاعِ جـعـلِ الظِّلِّ ساكنًا

(لو) حرفُ شرطٍ يدلُّ على امتناعِ جوابِهِ لامتناعِ شرطِهِ، فتدلُّ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ على امتناعِ جعلِ الظِّلِّ ساكنًا؛ بسببِ امتناعِ مشيئةِ اللهِ ﷻ جعْلَهُ ساكنًا.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾:

الإيـجـازُ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ على القاعدةِ المستمرَّةِ في مِثلِ هذا التَّركيبِ، والتَّقديرُ: (ولو شاءَ سُكونَهُ؛ لجعلَهُ ساكنًا)، أي: ثابتًا على حالِهِ، ظلًّا أبدًا، كما فعلَ ﷺ في ظلِّ الجنَّةِ، أو لجعلَهُ ثابتًا على حالِهِ مِنَ الطّولِ والامتدادِ، وذلكَ بألّا يجعلَ سبحانَهُ للشَّمسِ على نَسْخِهِ سبيلًا، بأنْ يُطلعَها، ولا يَدَعَها تنسخُهُ، أو بألّا يَدَعَها تُغيِّرُهُ باختلافِ أوضاعِها بعدَ طُلوعِها[3].

بلاغةُ وقوعِ اللّامِ في جوابِ ﴿وَلَوْ﴾:

سـرعـةُ وقـوعِ جـوابِ (لـو) بعد فعلها

اللّامُ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ هي اللّامُ الواقعةُ في جوابِ أداةِ الشَّرطِ (لو)، وهي تربطُ بين الشرطِ وجوابِهِ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 28.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 41.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 27.

كأنَّه لا يوجد فاصلٌ في الزمان بين فعل (لو) وجوابها، حيث إنَّه لو شاء ذلك؛ لجعله ساكنًا بمجرَّد المشيئة، كما أنَّها تقوّي الجواب وتؤكِّده، أي: إنَّ انتفاء جعْلِ الظلِّ ساكنًا أمرٌ مؤكَّدٌ مشاهد لا شكَّ فيه، كما أنَّها تفيد تعليلَ انتفاء الجواب بانتفاء الشرط.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في: ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾:

الإشارةُ لطلاقة القدرة وحريَّة المشيئة

(لو) للشَّرطِ في الماضي، أي: لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ فرْضًا في الماضي، معَ القطعِ بانتفاءِ الشَّرطِ، ولذلكَ يلزمُ في جملتَيْها المُضيُّ وعدمُ الثُّبوتِ[1]، ولذلكَ عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ سُلطانُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، أي: إنَّه لم يشأ ذلك أبدًا منذ بدء الخلق إلى الآن، وأنَّ ذلك جارٍ بطلاقةِ القدرةِ الواقعةِ وفق المشيئة.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سَاكِنًا﴾:

مقابلةُ الامتدادِ المشتملِ على الحركةِ

معنى قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: ولو شاءَ اللَّه؛ لجعلَ الظِّلَّ لاصقًا بأصلِ كلِّ مُظِلٍّ - مِنْ جبلٍ وبناءٍ وشجرةٍ - غيرَ مُنبسِطٍ، فلم يُنتفَعْ بهذا الظل، فسُمّيَ انبساطُ الظِّلِّ وامتدادُهُ تحرُّكًا منهُ، وعدمُ ذلكَ سُكونًا[2]، وعلى ذلكَ يكونُ قولُهُ: ﴿سَاكِنًا﴾ مأخوذًا مِنَ السُّكونِ[3].

أو: ولو شاءَ؛ لجعلَهُ ثابتًا على حالِهِ مِنَ الطّولِ والامتدادِ، وإنَّما عُبِّرَ عن ذلكَ بالسُّكونِ؛ لأنَّ مقابلَهُ الَّذي هو تغيُّرُ حالِهِ بتغيُّرِ الأوضاعِ بينَ الظِّلِّ وبينَ الشَّمسِ يُرَى رأيَ العينِ حركةً وانتقالًا[4]، وعلى ذلكَ يكونُ ﴿سَاكِنًا﴾ مأخوذًا مِنَ السُّكْنى بمعنى الاستقرارِ، لا

(1) التفتازاني، المختصر: 281 - 284.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 110.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.

مِنَ السُّكونِ[1]، أو إنَّه إنَّما عُبِّرَ عن ذلكَ بالسُّكونِ؛ لأنَّ مقابلَهُ الَّذي هو زوالُهُ لمّا كانَ تدريجيًّا؛ كانَ أشبهَ شيءٍ بالحركةِ[2].

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾:

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطْفٌ على ﴿مَدَّ﴾، داخلٌ في حكمِهِ، والمعنى: ألم ترَ إلى ربِّك بما له من العظمة، كيف جعل الشَّمسَ علامةً يُستدَلُّ بأحوالِها المُتغيِّرةِ على أحوالِ الظلِّ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ بينَهما سببيَّةٌ وتأثيرٌ[3].

الشَّمسُ علامةٌ يُستدَلُّ بأحوالِها المُتغيِّرةِ على أحوالِ الظل

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾:

حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: لبيانِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أعظمُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[4]؛ لأنَّ في إزالةِ الظِّلِّ بالشَّمسِ دليلًا على وجودِهِ، فلولا الشَّمسُ؛ ما عُرِفَ الظِّلُّ[5].

اتِّساعُ المعنى باحتمال (ثـمَّ) للتراخي الرتبي والزماني

ويمكنُ أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الزَّمنيِّ، وذلكَ أنَّهُ ﷺ مدَّ الظِّلَّ حينَ بنى السَّماءَ كالقُبَّةِ المضروبةِ، ودحا الأرضَ تحتَها، فألقَتِ القُبَّةُ ظِلَّها على الأرضِ فيْنانًا ما في أديمِهِ فُرَجٌ لعدمِ النَّيِّرِ، ولو شاءَ تعالى؛ لجعلَهُ في ذلك الوقت ساكنًا مُستقرًّا على تلكَ الحالةِ، ثمَّ خلقَ الشَّمسَ، وجعلَها على ذلكَ الظِّلِّ، أي: سلَّطَها عليهِ، ونصبَها دليلًا متبوعًا لهُ، كما يُتبَعُ الدَّليلُ في الطَّريقِ، فهو يزيدُ بها، وينقصُ، ويمتدُّ، ويتقلَّصُ[6]، ولا مانع من إرادة الأمرين معًا.

تردُّدُ دلالة ﴿ثُمَّ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

إنْ كانَتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

الإيجازُ بإرادة اللفظ الحقيقة أو المجاز أو هما معًا

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 110.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 28.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 246.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.

للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فهي استعارةٌ تبعيَّةٌ، حيثُ شُبِّهَ بُعْدُ المرتبةِ بالبُعْدِ الزَّمانيِّ، ثمَّ استُعيرَت لجانبِ المُشبَّهِ لفظُةُ ﴿ثُمَّ﴾، وأمّا إنْ كانَتْ للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ فهي على حقيقتِها[1].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾:

الدَّلالةُ على عِظَمِ القُدرةِ ودِقَّةِ الحكمةِ

الالتفاتُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لِما في الجَعْلِ المذكورِ العاري عنِ التَّأثيرِ - معَ ما يُشاهَدُ بينَ الشَّمسِ والظِّلِّ مِنَ الدَّوَرانِ المُطَّردِ المُنبئِ عنِ السَّببيَّةِ - مِنْ مزيدِ الدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ ودِقَّةِ الحكمةِ، وهو السِّرُّ في إيرادِ كلمةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾[2]، ويمكن أن يكون الالتفاتُ؛ للإيذانِ بعِظَمِ قَدْرِ هذا الجَعْلِ؛ لِما يستتبعُهُ مِنَ المصالحِ الَّتي لا تُحْصَى[3]، أو أنَّ الالتفاتَ وقع هنا؛ لأنَّ ضميرَ المتكلِّمِ أدخلُ في الامتنانِ مِنْ ضميرِ الغائبِ، فهو مُشعِرٌ بأنَّ هذا الجَعْلَ نعمةٌ، وهي نعمةُ النّورِ الَّذي بهِ تمييزُ أحوالِ المرئيّاتِ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ارتقاءً في المِنَّةِ[4].

وقيلَ: الالتفاتُ لبيانِ إرادةِ اللّهِ الواضحةِ، وأنَّهُ هو الفاعلُ المختارُ، ولتربيةِ المَهابةِ في النُّفوسِ بخطابِهِ بذاتِهِ العَليَّةِ[5].

نكتةُ إسنادِ ﴿جَعَلْنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ جعلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ

في إسنادِ ﴿جَعَلْنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ تعظيمٌ لشأنِ هذا الجَعْلِ العجيبِ الشَّأنِ، فهو جَعْلٌ تترتَّبُ عليهِ نعمةُ النّورِ الَّذي بهِ تمييزُ أحوالِ المرئيّاتِ، والمعنى: ثمَّ جعلْنا بعظَمتِنا الشَّمسَ عليهِ دليلًا[6].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 246.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 222.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 28.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 41.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5289.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 397.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿دَلِيلٗا﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ للمُؤخَّرِ

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿دَلِيلٗا﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ للعنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ الجَعْلِ مُتعلِّقًا بالظِّلِّ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الدَّليلُ، ويضافُ إلى ذلكَ أنَّ تأخيرَ ﴿دَلِيلٗا﴾ تترتَّبُ عليهِ مراعاةُ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

نكتةُ تعديةِ ﴿دَلِيلٗا﴾ بـ(على):

الإشارةُ إلى أنَّ دلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ دلالةُ تنبيهٍ على شيءٍ قد يَخْفَى

تُفيدُ تعديةُ ﴿دَلِيلٗا﴾ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ أنَّ دلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ دلالةُ تنبيهٍ على شيءٍ قد يَخْفَى، وهو الدلالةُ على قدرة اللّه تعالى وعظيم نعمته، وأنَّه ينبغي النَّظر إلى المنعم قبل النَّظر إلى النِّعمة، ويشملُ هذا حالتَي المدِّ والقَبْضِ[1].

معنى كونِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ:

الاستدلالُ بالشَّمسِ وأحوالِها في مَسيرِها على أحوالِ الظِّلِّ

قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾، معناهُ: أنَّ النّاسَ يستدلّونَ بالشَّمسِ وأحوالِها في مَسيرِها على أحوالِ الظِّلِّ، مِنْ كونِهِ ثابتًا في مكانٍ، زائلًا ومُتَّسِعًا ومُتقلِّصًا، فيبنونَ حاجتَهم إلى الظِّلِّ واستغناءَهم عنهُ على ذلكَ[2].

أو: أنَّ المعنى: ثمَّ جعلْنا الشَّمسَ بنسخِها الظِّلَّ عندَ مَجيئِها دالَّةً على أنَّ الظِّلَّ شيءٌ ومعنًى؛ لأنَّ الأشياءَ تُعرَفُ بأضدادِها، ولولا الشَّمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ، ولولا النّورُ؛ ما عُرِفَتِ الظُّلمةُ[3].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾:

تشبيهُ الشَّمسِ بالمُرشِدِ الهادي

في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ تشبيهٌ بديعٌ، وذلكَ أنَّ الدَّليلَ في الأصلِ: المُرشِدُ إلى الطَّريقِ والهادي إليهِ، فجُعِلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 37.

امتدادُ الظِّلِّ لاختلافِ مقاديرِهِ كامتدادِ الطَّريقِ، وجُعِلَتِ الشَّمسُ مِنْ حيثُ كانَتْ سببًا في ظُهورِ مقاديرِ الظِّلِّ كالهادي إلى مراحلَ، بطريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، فكما أنَّ الهاديَ يُخبِرُ السّائرَ أينَ ينزلُ مِنَ الطَّريقِ، كذلكَ الشَّمسُ بتسبُّبِها في مقاديرِ امتدادِ الظِّلِّ تُعرِّفُ المُستدِلَّ بالظِّلِّ بأوقاتِ أعمالِهِ؛ ليشرعَ فيها[1].

علَّةُ عدمِ تأنيثِ قولِهِ تعالى: ﴿دَلِيلًا﴾:

الدَّليلُ في معنى الاسمِ

لم يُؤنَّثِ الدَّليلُ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، وهو صفةٌ للشَّمسِ؛ لأنَّهُ في معنى الاسمِ، كما يقالُ: الشَّمسُ بُرهانٌ، والشَّمسُ حقٌّ، أو أنَّ الشمس مؤنَّث مجازي، فتذكيرُ الدَّليل أقوى من تأنيثِهِ للإشارة إلى قوَّة دلالة الشَّمس على الظل.

نكتةُ تنكيرِ ﴿دَلِيلًا﴾:

تعظيمُ كونِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ

يدلُّ تنكيرُ ﴿دَلِيلًا﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ على تعظيمِ شأنِ كونِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ، أي: ثمَّ جعلْنا الشَّمسَ على الظِّلِّ دليلًا عظيمَ الشَّأنِ، فيه حِكَمٌ وأسرارٌ.

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾:

التَّشريكُ في الحُكمِ مع كثرةِ المعاني

جملةُ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، داخلةٌ في حكمِها[2]، أو على جملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأنَّ قَبْضَ الظِّلِّ مِنْ آثارِ جعلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾:

احتمالُ (ثُمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ أو الرُّتبيِّ

قيلَ: ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ للتَّراخي الزَّمانيِّ؛ لأنَّ في بيانِ كونِ القَبْضِ والمدِّ مرتَّبين - دائرين على قُطْبِ مصالحِ المخلوقاتِ - مزيدَ دلالةٍ على الحكمةِ الرَّبّانيَّةِ.

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 6/ 297، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.

ويجوزُ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبيِّ، والمعنى: أزَلْناهُ بعدَما أنشأناهُ مُمتدًّا، ومَحَوْناهُ بمَحْضِ قُدرتِنا ومشيئتِنا عندَ إيقاعِ شُعاعِ الشَّمسِ موقعَهُ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهُ تأثيرٌ في ذلكَ أصلًا[1].

وقيلَ في توجيهِ التَّراخي الرُّتبيِّ: إنَّ مضمونَ جملةِ: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أهمُّ في الاعتبارِ بمضمونِها مِنْ مضمونِ جملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ إذ في قَبْضِ الظِّلِّ دلالةٌ مِنْ دلالةِ الشَّمسِ هي عكسُ دلالتِها على امتدادِهِ، فكانَتْ أعجبَ؛ إذ هي عملٌ ضدٌّ للعملِ الأوَّلِ، وصُدورُ الضِّدَّينِ مِنَ السَّببِ الواحدِ أعجبُ مِنْ صُدورِ أحدِهما السّابقِ في الذِّكرِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها على التراخي الزمني أو الرتبي:

اتِّساعُ المعنى لدلالةِ على الحقيقةِ أو المجاز أو عليهما معًا

إنْ كانَتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فهي استعارةٌ تبعيَّةٌ، حيثُ شُبِّهَ بُعْدُ المرتبةِ بالبُعْدِ الزَّمانيِّ، ثمَّ استُعيرَت لجانبِ المُشبَّهِ لفظةُ ﴿ثُمَّ﴾، وأمّا إنْ كانَتْ للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ فهي على حقيقتِها[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ القَبْضِ:

مناسبةُ القَبْضِ للمدِّ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، معناهُ: ثمَّ أزَلْنا الظِّلَّ بإيقاعِ الشَّمسِ موقعَهُ[4]، فيكونُ استعمالُ القَبْضِ في الإزالةِ مِنْ بابِ المجازِ المُرسَلِ؛ لأنَّ الإزالةَ لازمةٌ للقَبْضِ[5].

ويجوزُ أنْ يكونَ استعمالُهُ فيها على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وتعديتُهُ بقولِهِ: ﴿إِلَيْنَا﴾ تخييلٌ، شُبِّهَ الظِّلُّ بحَبْلٍ أو ثوبٍ طواهُ صاحبُهُ بعدَ أنْ بسطَهُ، وحرفُ (إلى) ومجروره تخييلٌ[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 246.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 126.
(5) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 111.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 42.

وسرُّ هذا التَّجوُّز: أنَّهُ لمّا عُبِّرَ عن إحداثِهِ بالمدِّ بمعنى التَّسيير؛ عُبِّرَ عن إزالتِهِ بالقَبْضِ إلى نفسِهِ الَّذي هو في معنى الكفِّ[1]، فيكونُ في ذِكرِ القَبْضِ بعدَ ذِكرِ المدِّ رعايةُ معنى المقابلةِ والتَّضادِّ، وهو مِنْ مُحسِّناتِ الكلامِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿قَبَضْنَاهُ﴾:

الـدَّلالـةُ على تـحـقُّـقِ وقـوعِ قبضِ الظل

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ على تحقُّقِ وقوعِ قَبْضِ الظِّلِّ[3]، وأنَّهُ أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، ولا يزال يتكرَّر كلَّ يوم، فهو محسوسٌ مُشاهَدٌ، فلا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه.

بلاغةُ إسنادِ ﴿قَبَضْنَاهُ﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تـعـظـيـمُ شـأنِ قَـبْـضِ الـظِّـلِّ ومدِّه

أُضيفَ ﴿قَبَضْنَاهُ﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ لتعظيمِ شأنِ قَبْضِ الظِّلِّ؛ لأنَّهُ صادرٌ عن ذي العظَمةِ والجلالِ ﷻ، ويُقوّي هذا التَّعظيمَ التَّعبيرُ بضميرِ العظَمةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِلَيْنَا﴾.

أو أنَّهُ أُضيفَ القَبْضُ إليهِ سبحانَهُ؛ لأنَّهُ يكونُ بإرادتِهِ، وبالنِّظامِ الثّابتِ الَّذي وضعَهُ اللّهُ تعالى للكونِ، فجعلَ سبحانَهُ الأرضَ تدورُ حولَ الشَّمسِ، وبهذا الدَّوَرانِ يكونُ اللَّيلُ والنَّهارُ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾:

مرجعُ الظِّلِّ إليهِ تعالى لا يشاركُه أحدٌ في إزالتِهِ أو حدوثه

التَّعبيرُ بـ﴿إِلَيْنَا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ للتَّنصيصِ على كونِ مرجعِ الظِّلِّ إليهِ تعالى، لا يشاركُه أحدٌ في إزالتِهِ، كما أنَّ حدوثَهُ منهُ ﷻ، لا يشاركُهُ فيهِ أحدٌ[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 126.
(2) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 111.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5290.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَبْضًا﴾:

تأكيدُ القَبْضِ

يدلُّ التَّعبيرُ بالمصدرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ على تأكيدِ وقوعِ القَبْضِ العجيبِ الشَّأنِ، الدّالِّ على كمالِ قُدرتِهِ جلَّ شأنُهُ.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿يَسِيرًا﴾:

منافعُ مدِّ الظل وقبضه لا تتحصَّل إلّا إذا وقعت ببطء

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ معناهُ: على مَهَلٍ، وفي القَبْضِ اليسيرِ - شيئًا بعدَ شيءٍ - مِنَ المنافعِ ما لا يُعَدُّ، ولا يُحْصَى، ولو قُبِضَ دفعةً واحدةً؛ لتعطَّلَتْ أكثرُ منافعِ النّاسِ بالظِّلِّ والشَّمسِ جميعًا[1]، وعلى هذا يكونُ قد أُطلِقَ اليُسْرُ، وأُريدَ بهِ لازمُ معناهُ عُرْفًا، وهو التَّدريجُ ببُطْءٍ، على طريقةِ الكنايةِ[2].

أو المرادُ مِنْ قَبْضِ الظِّلِّ قبضًا يسيرًا: قَبْضُهُ عندَ قيامِ السّاعةِ، وذلكَ بقَبْضِ أسبابِهِ، وهي الأجرامُ الَّتي تُلقي الأظلالَ، وقولُهُ: ﴿يَسِيرًا﴾ كقولِهِ: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: 44]؛ لأنَّ إتيانَ السّاعةِ وأَماراتِها عليهِ يسيرٌ[3].

براعةُ التَّمثيلِ في التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ:

تقريبُ أحوالِ النّاسِ مِنَ الإيجادِ إلى مصيرِهم لربِّهم

المعنى: أنَّه قد حصلَ مِنَ التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، معَ المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القُدرةِ، تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النّاسِ وأحوالِ الشَّبابِ وتقدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلكَ صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيهِ ولا بُعْدَ، فلمّا صارَ قَبْضُ الظِّلِّ مَثَلًا لمَصيرِ النّاسِ إلى اللّهِ بالبعثِ؛ وُصِفَ القَبْضُ باليُسْرِ، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ إلى أنَّ الحياةَ الدُّنيا كظلٍّ يمتدُّ، وينقبضُ، وما هو إلّا ظلٌّ[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 43.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 465.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 43.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظِّلُّ والفيءُ:

الظِّلُّ والفيءُ

الظِّلُّ يكونُ ليلًا ونهارًا، وهو الحاصلُ مِنَ الحاجزِ بينَكَ وبينَ الشَّمسِ، والفيء لا يكونُ إلّا بالنَّهارِ، كما أنَّ الظِّلَّ: مِنَ الطُّلوعِ إلى الزَّوالِ، والفيءُ: مِنَ الزَّوالِ إلى الغُروبِ.

وقيلَ: الفيءُ: ما نسخَهُ ضوءُ الشَّمسُ، والظِّلُّ: ما كانَ قائمًا لم ينسَخْهُ ضوءُ الشَّمسِ، فكلُّ فيءٍ ظِلٌّ، وليسَ كلُّ ظلٍّ فيئًا[1].

السُّكونُ والثَّباتُ:

الثَّباتُ: عدمُ انتقالٍ مِنْ مكانٍ إلى آخرَ، والسُّكونُ: عدمُ حركةٍ

فُرِّقَ بينَ الثَّباتِ والسُّكونِ بأنَّ الثَّباتَ: عدمُ انتقالٍ مِنْ مكانٍ إلى آخر أو تغيُّر من حال إلى آخر، والسُّكونَ: عدمُ حركةٍ ممّا مِنْ شأنِهِ أنْ يتحرَّكَ، والسُّكونُ مقابلُ الحركةِ، والثَّباتُ مقابلُ الانتقالِ[2].

الدَّليلُ والبُرهانُ:

البُرهانُ: يُفيدُ العلمَ، والدَّليلُ: يُفيدُ الظَّنَّ

الفرقُ بينَ البُرهانِ والدَّليلِ: أنَّ البُرهانَ: الحُجَّةُ القاطعةُ المفيدةُ للعلمِ، وأمّا الدَّليلُ؛ فيُفيدُ الظَّنَّ[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 340.
(2) هنريكوس، فرائد اللغة، ص: 50.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 97.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾ [الفرقان: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ صراحةً بعدَ ذِكرِهما ضمنًا

اختُلِفَ في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها، فقيلَ: لمّا تضمَّنتِ الآياتُ السّابقةُ اللَّيلَ والنَّهارَ؛ قالَ سبحانَهُ مُصرِّحًا بهما دليلًا على الحقِّ، وإظهارًا للنِّعمةِ على الخَلْقِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ الآيةَ[1]، أو هي مناسبةُ الانتقالِ مِنَ الاستدلالِ باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاءِ إلى الاعتبارِ بأحوالِ اللَّيلِ والنَّهارِ: أنَّ اللَّيلَ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّهُ ظُلمةٌ تَعْقُبُ نورَ الشَّمسِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَاسٗا﴾: (لبس) أصلٌ يدلُّ على مخالطةٍ ومداخلةٍ[3]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: لَبِسَ الثَّوبَ، أي: استترَ بهِ، وألبسَهُ غيرَهُ، واللِّباسُ: ما يُلبَسُ، قالَ تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِى سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: 26]، وجُعِلَ اللِّباسُ لكلِّ ما يُغطّي قبيحَ الإنسانِ، فجُعِلَ الزَّوجُ لزوجِهِ لباسًا مِنْ حيثُ إنَّهُ يمنعُها، ويصدُّها عن تعاطي القبيحِ، قالَ ﷻ: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187][4].

2) ﴿سُبَاتٗا﴾: (سبت) أصلُ السَّبْتِ: القَطْعُ، ومنهُ: سَبَتَ شَعرَهُ: حَلَقَهُ، وسَبَتَ أَنْفَهُ: قطعَهُ[5]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩﴾ [النبأ: 9]، أي: قَطْعًا لأعمالِكم الَّتي تزاولونَها نهارًا، والمعنى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 399، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).
(4) الراغب، المفردات: (لبس).
(5) الراغب، المفردات: (سبت).

جعَلْناهُ راحةً لكُم، أو لأنَّهُ تنقطعُ فيهِ حركاتُكم، فتسكُنونَ[1]، وفُسِّرَ السُّباتُ أيضًا بالموتِ.

3) ﴿نُشُورًا﴾: (نشر) النشر: فتْحُ شيءٍ وتشعُّبُهُ[2]، ومِنْ ذلكَ: بَسْطُ الثَّوبِ والصَّحيفةِ والسَّحابِ والنِّعمةِ والحديثِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: 10]، أي: بُسِطَتْ، وقالَ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ [المرسلات: 3]، أي: والملائكةِ التي تَنشُرُ الرّياحَ، أوِ بمعنى: الرّياحِ التي تَنشُرُ السَّحابَ، وقالَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: جعلَ فيهِ الانتشارَ وابتغاءَ الرِّزقِ، وانتشارُ النّاسِ: تصرُّفُهم، وتفرُّقُهم في الحاجاتِ[3]، وأصلُ النَّشْرِ في الأجرامِ، ثمَّ تُجوِّزَ بهِ في المعاني[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وهو الَّذي جعلَ لكُم - أيُّها النّاسُ - اللَّيلَ لباسًا، تسكُنونَ فيهِ، وتستترونَ بهِ، وجعلَ لكُم النَّومَ راحةً، تستريحُ بهِ أبدانُكم، وتهدأُ بهِ جوارحُكم، وجعلَ النَّهارَ يقَظةً وحياةً، تنتشرونَ فيهِ لمَعايشِكم ومكاسبِكم وأسبابِكم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾:

اتِّساعُ المعنى لاحتمالِ كونِ الواوِ عاطفةً أو استئنافيَّةً

تحتملُ الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أنْ تكونَ عاطفةً، والجملةُ بعدَها معطوفةٌ على ما قبلَها، وتكون داخلة في حيز استفهام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ويكون ذلك من جملة عطاء الربوبيَّة.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (سبت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(3) الراغب، المفردات: (نشر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نشر)، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: (نشر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (بسط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 278، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 114.

وتحتملُ أنْ تكونَ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، ويكون ذلك انتقالًا إلى باب جديد من أبواب الاستدلال على استحقاق اللّهِ تعالى للألوهيَّة وانفراده بها، كأنَّهُ استدلالٌ بعطاء الربوبيَّة على حقِّ الألوهية.

سرُّ الالتفاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾:

رجعَ أسلوبُ الكلامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ مِنَ التكلُّمِ إلى الغَيبةِ على طريقةِ الالتفات[1]، وفي ذلكَ تلوينٌ للخطابِ، والغرضُ منهُ توفيةُ مقامِ الامتنانِ حقَّهُ[2].

توفيةُ مقامِ الامتنانِ حقَّهُ

سرُّ تعريفِ المسند إليه والمسند:

افتُتحت الآية بتعريف الطَّرفين بالضَّمير والاسم الموصول؛ للدلالة على القصر، وهو باب من أبواب البلاغة العالية بالإيجاز، للتعبير عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، أي: هو الذي يقدر على هذا الجعل، ولا يستطيع أحدٌ سواه أن يقدر عليه، ولا على شيء قريب منه.

إيجازُ القصرِ بالتَّعبير عن الجملتين في جملة واحدة

وبالجملة فإنَّ استخدامَ الضمير (هو) مع الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، دون الاقتصار على الاسم الموصول وحده، هو أسلوب بلاغيٌّ مُتقن يُضفي على الجملة الإيجاز والوضوح والتَّأكيد.

والقصر ههنا قصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشْرَكُهُ غيرُهُ في جعلِ اللَّيلِ لباسًا والنوم سباتًا والنَّهار نشورًا، أمّا كونُ الجعلِ المذكورِ بخَلْقِ اللّهِ؛ فهُم يُقِرّونَ بهِ، ولكنَّهم لمّا جعلوا لهُ شُرَكاءَ على الإجمالِ؛ أُبطِلَتْ شِرْكتُهم بقصرِ التَّصرُّفِ في الأزمانِ على اللّهِ تعالى؛ لأنَّهُ إذا بطلَ تصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ؛ اختلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عندهُم؛ إذ الإلهيَّةُ لا تقبلُ التَّجزئةَ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾:

في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٌ كثيرة تدلُّ على عِظَم قدرة الخالق

جمعَ قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ استدلالًا وامتنانًا، فهو دليلٌ على عِظَم قُدرةِ الخالقِ، وهو أيضًا تذكيرٌ بنِعَمِه، فإنَّ في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٍ كثيرةً؛ لِما يدلُّ عليه حصولُ الظُّلمةِ مِنْ دِقَّةِ نظامِ دَوَرانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، ومِنْ دِقَّةِ نظامِ خَلْقِ الشَّمسِ، ولِما يتوقَّفُ عليه وجودُ النَّهارِ مِنْ تغيُّرِ دَوَرانِ الأرضِ، ومِنْ فوائدِ نورِ الشَّمسِ، ثمَّ ما يدلُّ عليه اللَّيلُ مِنْ نظامِ النَّومِ المناسبِ للظُّلمةِ، حينَ ترتخي أعصابُ النّاسِ، فيحصلُ لهُم بالنَّومِ تجدُّدُ نشاطِهم، وما يدلُّ عليه اللَّيلُ أيضًا مِنَ الاستعانةِ على التَّستُّرِ بظُلمتِه، ومِنْ نظامِ النَّهارِ مِنْ تجدُّدِ النَّشاطِ وانتشارِ النّاسِ للعملِ، معَ ما هو ملائمٌ لذلكَ مِنَ النّورِ الَّذي بهِ إبصارُ ما يقصدُهُ العاملونَ غالبًا[1].

وقد عُبِّرَ بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الامتنانِ بالنِّعمِ والاستدلالِ بها على إفرادِه تعالى بالعبادةِ والشُّكرِ، هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ بدلَ الخلقِ:

تهيئةُ الأشياءِ بعدَ خلقِها للانتفاعِ بها

عبَّرَ بالجعلِ بدلَ الخَلقِ؛ ليدلَّ على عنايةِ اللهِ تعالى بالأشياءِ المخلوقةِ، وأنَّه لم يخلُقْها عبثًا، إنَّما خلقَها؛ لينتفعَ بها طوائفُ من خَلقِه، لاسيَّما أهلُ التَّكليفِ سواءٌ أبقيتِ المخلوقاتُ على أصلِها أم حدثَ فيها نوعُ تغييرٍ وتحويلٍ، ويؤكِّدُ هذا ما سيأتي بعدَه من دلالةِ اللامِ في ﴿لَكُمُ﴾ على الاختصاصِ، أي: هيَّأها بعدَ خلقِها من أجلِكم أنتم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الجعلِ المذكورِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، على أنَّ جعلَ اللَّيلِ لباسًا، وما عُطِفَ عليهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، وهو معلومٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ مُتكرِّرٌ؛ إذ الشَّيءُ الذي حدث، ومضى، وانتهى لا يستطيع أن ينكره أحدٌ، ولا يُنازَع في ثبوتِهِ، فكيف به إذا تحقَّق حدوثه في الماضي، وتكرَّر حدوثه بعد ذلك، ولم يتخلَّف في وقت من الأوقات عن هذا التَّكرار، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللهِ ﷻ، والامتنانِ على عبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ.

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمُ﴾:

اللّامُ ﴿لَكُمُ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ للاختصاصِ، وهي تُفيدُ أنَّ هذهِ النِّعَمَ الجليلةَ قد جعلَها اللهُ تعالى لأجلِ المُخاطَبينَ، وهي مِنْ مظاهرِ نعمتِهِ عليهم ورحمتِهِ بهم.

اللّامُ للتَّمليكِ والدلالة على الاختصاص

فائدةُ تعلُّقِ الجار والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ بـ﴿جَعَلَ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ مُتعلِّقانِ بـ﴿جَعَلَ﴾، أي: مِنْ جملةِ ما خُلِقَ لهُ اللَّيلُ كونُهُ لباسًا لكُم، وهذا لا يقتضي أنَّ اللَّيلَ خُلِقَ لذلكَ فقط؛ لأنَّ اللَّيلَ عَوْدُ الظُّلمةِ إلى جانبٍ مِنَ الكرةِ الأرضيَّةِ المُحتجِبِ عن شُعاعِ الشَّمسِ باستداراتِهِ، فتحصلُ مِنْ ذلكَ فوائدُ جمَّةٌ، منها ما في هذه الآية، ومنها ما في قولِهِ تعالى بعدَ هذا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان: 62][1].

الإشارةُ إلى تهيئةِ اللَّيلِ والنهار للمخاطَبين كي ينتفعوا بهما

بلاغةُ تقديمِ الجار والمجرور على مفعولي جعل:

قدَّم الجار والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على مفعولي ﴿جَعَلَ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاص من جهة، ولبيان بعض فوائد المجعول في هذه الآية، وللاعتناءِ ببيانِ كونِ ما يَعْقُبُهُ مِنْ منافعِهم[2].

الاختصاصُ وعظيم الانتفاع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.

غرضُ تعريفِ قولِهِ: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ونوعه:

اتِّساعُ المعنى في الكلمة الواحدة لاحتمالها معاني مختلفة

تحتمل (أل) التعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ أن تكونَ للجنس، أي: جعل لكم جنسَ اللَّيل لباسًا، وتحتمل أن تكون للاستغراق بنوعيه: استغراقِ الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء الليل سكنًا، أو استغراقِ الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ الليالي سكنًا، والعمومُ الناشئ عن الاستغراق بنوعيه قد يدخله نوعُ تخصيصٍ، إمّا في بعض أجزاءِ اللَّيل أو في بعض الليالي دون بعض أو فيهما معًا، أو يكون التَّخصيص أمرًا خارجًا عن اللَّيل كلِّه، وذلك لبعض الناس دون بعضٍ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿لِبَاسٗا﴾:

اتِّساع المعاني باتِّساع أغراض التنكير

يحتملُ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿لِبَاسٗا﴾ في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ للتنويع، أي: أنواعًا مختلفة من اللباس غير المتعارف عليه باعتبار أجزائه على أنَّ (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ لاستغراق الأجزاء، أي: نوعًا مِنْ أنواعِ اللِّباسِ، وهو غيرُ المُتعارَفِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: لباسًا بديعًا عظيمَ الشَّأنِ؛ لِما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المنافعِ العظيمةِ.

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِبَاسٗا﴾:

تشبيهُ ظلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السّاترِ

في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ تشبيهٌ بليغٌ بديعٌ، حيثُ شُبِّهَ ما يسترُ مِنْ ظلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السّاترِ[1]، مِنْ حيثُ إنَّهُ يسترُ الأشياءَ ويُغطّيها[2]، وفي هذا السَّترِ مِنَنٌ كثيرةٌ لقضاءِ الحوائجِ الَّتي يجبُ إخفاؤُها[3].

نكتةُ تعقيبِ بيانِ أحوالِ الظِّلِّ ببيانِ أحكامِ اللَّيلِ:

مراعاةُ التَّناسُبِ بينَ الظِّلِّ واللَّيلِ

قولُهُ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ فيهِ تعقيبُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 427.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 44.

بيانِ أحوالِ الظِّلِ المذكورةِ في الآيتينِ السّابقتينِ ببيانِ أحكامِ اللَّيلِ الَّذي هو ظلُّ الأرضِ، وفي ذلكَ التَّعقيبِ مِنْ لُطْفِ المَسْلَكِ ما لا مزيدَ عليهِ[1]؛ لِما فيهِ مِنْ رعايةِ التَّناسبِ بينَ شيئينِ كلٌّ منهما ظلٌّ.

سرُّ عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ على ما قبلَهُ:

زيـادةُ الامتنانِ بـذكـرِ نـعـمـةٍ جديدةٍ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ على قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾؛ لزيادةِ الامتنانِ على المخاطَبينَ بذكرِ نعمةٍ جديدةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِم لم تسبق الإشارةُ إليها.

فائدةُ عدمِ ذكرِ الجعلِ مع نعمةِ النومِ:

الإشـارةُ إلى أنَّ الأصل في النوم أن يـكـون في اللَّيل

لمّا كان الغرض الحاصل من النّوم، وهو كونه سباتًا لا يكون على أكمل وجهٍ إلّا في اللَّيل؛ كان كأنَّه نعمةٌ منبثقةٌ من جعل اللَّيل لباسًا، فكانا كالنِّعمة الواحدة؛ لذا لم يتكرَّر ذِكرُ الجَعْلِ مع النوم بخلاف ذِكْرِ الجَعْلِ مع النَّهارِ بعد ذلك.

المرادُ بالسُّباتِ في قولِهِ تعالى: ﴿سُبَاتٗا﴾:

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً

يُطلَقُ السُّباتُ على النَّومِ؛ إذ النّوم راحةٌ، ويُطلَقُ على الموتِ، بدليلِ مقابلتِهِ بالنُّشورِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾[2]، والمعنى: وجعلَ النَّومَ الَّذي يقعُ في اللَّيلِ غالبًا؛ قطعًا عنِ الأفعالِ المختصَّةِ بحالِ اليقَظةِ، عُبِّرَ عنهُ بالسُّباتِ الَّذي هو الموتُ؛ لِما بينَهما مِنَ المشابهةِ التّامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ[3]، والمغشيِّ عليهِ، والعليلِ؛ إذا كانَ مُلقًى كالنّائمِ[4]، فالسُّباتُ ضربٌ مِنَ الإغماءِ يعتري اليقظانَ مرضًا، فشُبِّهَ النّائمُ بهِ[5]، ففي كلِّ ذلك معنى القطعِ، فالنّوم قطعٌ للحركةِ يستجلب الراحة، والميِّت قُطِعَتْ حياتُهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 283.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 248.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 212.

على التأبيد، والمغشي عليه قُطعت حياتُهُ على التأقيت، وقيلَ: الأنسبُ بمقامِ الامتنانِ هنا هو معنى الرّاحةِ[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿سُبَاتًا﴾:

اتّساعُ المعاني باتّساعِ أغراضِ التّنكير

يحتملُ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿سُبَاتًا﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ للتنويع، أي: نوعًا مِنْ أنواعِ السُّباتِ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: سباتًا بديعًا عظيمَ الشَّأنِ؛ لِما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المنافعِ الجليلةِ للمُخاطَبينَ.

ويحتمل أن يكون التَّنكير للاستغراق الدّالِّ على عموم الأجزاء أو عموم الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ درجات النوم سباتًا، أو كلَّ أنواع النوم سباتًا.

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾:

التشريكُ في القصرِ

الواو في جملةِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ عاطفةٌ، والجملة بعدها معطوفةٌ على جملةِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، فهي داخلةٌ في حيِّزِ القصرِ، أي: وهو لا غيرُهُ الَّذي جعلَ النَّهارَ نُشورًا.

نكتةُ تَكرارِ الفعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾:

جَعْلُ النهارِ نشورًا مخالفٌ لجَعْلِ اللَّيلِ لباسًا

إعادةُ فعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ دونَ أنْ يُعادَ في قولِهِ: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ للتَّنبيهِ على أن جَعْلَ النهار نشورًا مخالفٌ لجَعْلِ اللَّيلِ لباسًا، وذلكَ أنَّهُ أُخبِرَ عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿نُشُورًا﴾[2].

نكتةُ التَّعريفِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّهَارَ﴾:

التَّعريفُ للجنسِ

تحتمل (أل) التعريفية في ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ أن تكون للجنس، أي: جعل لكم جنس النهار نشورًا، وتحتمل أن تكون للاستغراق بنوعيه: استغراق الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء النَّهار نشورًا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 248، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

أو لاستغراق الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ النَّهار نشورًا، والعموم الناشئ عن الاستغراق بنوعيه قد يدخله نوع تخصيص؛ إمّا في بعض أجزاءِ النَّهار، أو في بعض الأيام دون بعضٍ، أو فيهما معًا، أو يكون التَّخصيص أمرًا خارجًا عن النَّهار كلِّهِ، ويحتمل أن يكون هناك مضافٌ محذوفٌ، والتقدير: (أوَّل النَّهار نشورًا)، على أنَّ النشور: هو الإحياء من الموت (النوم)، فلا يحتملُ عمومَ الأجزاء.

المرادُ بالنُّشورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾:

النَّـهـارُ ينتشرُ فـيـهِ الـنّـاسُ لـحـوائـجِـهـم واكتسابِهم

يحتملُ النُّشور في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ معاني منها: البُروزُ والانتشارُ والشيوع والاتِّساع، الذي هو ضدُّ الطي، في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ [الإسراء: 13]، وهو راجعٌ إلى معنى البروز، فيكون ضدَّ اللِّباسِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، ويكونَ الإخبارُ بهِ عنِ النَّهارِ حقيقيًّا، والمِنَّةُ في أنَّ النَّهارَ ينتشرُ فيهِ النّاسُ لحوائجِهم واكتسابِهم.

ومنها أنْ يُرادَ بهِ بَعْثُ الأجسادِ بعدَ موتِها، فيكونَ الإخبارُ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ[1]، شُبِّهَتِ اليقظةُ بهِ؛ ليتطابقَ الإحياءُ معَ الإماتةِ، وهما اللَّذانِ يتضمَّنُهما النَّومُ والسُّباتُ[2]، ومنه الدُّعاء المأثور: «الحمد للّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿نُشُورًا﴾:

الإشـــارةُ إلى الحركةِ والكسبِ وإنهاءِ السُّباتِ

في كلمةِ ﴿نُشُورًا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾؛ إنْ أُريدَ بالنُّشورِ الانتشارُ - إشارةٌ إلى أمورٍ ثلاثةٍ: أوَّلُها: إنهاءُ سُباتِ اللَّيلِ، وثانيها: الحركةُ العاملةُ الَّتي بها يُعمَّرُ الكونُ، وثالثُها: الكسبُ في الحياةِ وظُهورُ الأعمالِ خيرِها وشرِّها[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 212، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 114.
(3) البخاري، الجامع الصحيح، رقم: (6324).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.

بلاغةُ الإدماجِ والتَّعريضِ في قولِهِ تعالى: ﴿نُشُورًا﴾:

التَّذكيرُ بالبعثِ والتَّعريضُ بالرَّدِّ على مُنكِريهِ

إن كان المرادُ بالنُّشورِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ بَعْثَ الأمواتِ؛ يكونُ في الكلامِ إدماجٌ للتَّذكيرِ بالبَعْثِ، وتعريضٌ بالاستدلالِ على مَنْ منعوه، وأحالوهُ، بتقريبِهِ بالهُبوبِ والانتشارِ في النَّهارِ[1].

بلاغةُ الوصفِ بالنُّشورِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾:

جعلَ اللهُ النَّهارَ زمانَ بَعْثٍ مِن السُّباتِ لطلبِ المعاشِ

معنى قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: جعلَ النَّهارَ ذا نُشورٍ، ينتشرُ فيهِ النّاسُ لطلبِ المَعاشِ، وفي التعبيرِ بالمصدرِ وجعْلِهِ نفسَ النُّشورِ مبالغةٌ[2]، أو جعلَ النَّهارَ زمانَ بَعْثٍ مِنْ ذلكَ السُّباتِ، وإحياء من موت النَّوم، وهو على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ[3]، وعلى هذينِ الوجهينِ يكونُ في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ.

وقيلَ: ﴿نُشُورًا﴾ بمعنى: ناشرًا، على الإسنادِ العقليِّ[4]، سُمّيَ الزَّمانُ باسمِ ما يقعُ عليهِ، وهذا مجازٌ علاقتُهُ ظَّرفيَّةٌ، وفي ذلكَ ما يفيدُ أنَّهُ زمنُ حركةٍ وعملٍ، وليسَ زمنَ تَوانٍ وكَسَلٍ، وهذهِ دعوةٌ إلى العملِ، فالعملُ حياةٌ، والكَسَلُ موتٌ[5].

نكتةُ تنكيرِ ﴿نُشُورًا﴾:

التَّنكيرُ للنَّوعيَّةِ أو التَّعظيمِ

يحتملُ أنْ يكونَ تنكيرُ ﴿نُشُورًا﴾ في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ للتَّنويعِ، أي: أنواعٌ مختلفة من النُّشورِ شاملةٌ كلَّ معانيه، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: نُشورًا بديعًا عظيمَ الشَّأنِ؛ لِما يترتَّبُ عليهِ مِنَ المنافعِ والمصالحِ الجليلةِ للمُخاطَبينَ.

ويحتملُ أن يكون للعموم بنوعيه، أي: جعل لكم النَّهار نشورًا عامًّا شاملًا كلَّ معاني النشورِ في كلِّ زمانِ النَّهار.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 223.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 29.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.

براعةُ الإيجازِ بالاحتباكِ في الآيةِ:

ذِكـرُ السُّـبـاتِ دلـيـلٌ عـلى الحركةِ، وذِكرُ النُّشورِ دليلٌ على السُّكونِ

قولُهُ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: حياةً وحركةً وتقلُّبًا بما أوجدَ فيهِ مِنَ اليقَظةِ المُذكِّرةِ بالبعثِ، المُهيِّئةِ للتَّقلُّبِ، بردِّ ما أعدمَهُ النَّومُ مِنْ جميعِ الحواسِّ، فالآيةُ مِنَ الاحتباكِ، حيثُ ذكرَ السُّباتَ أوَّلًا؛ دليلًا على الحركةِ ثانيًا، وذكرَ النُّشورَ ثانيًا؛ دليلًا على الطَّيِّ والسُّكونِ أوَّلًا[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ الآيات:

قُدِّمَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ جَعْلُ اللَّيلِ لباسًا على جَعْلِ النَّومِ سُباتًا؛ لتقدُّمِهِ عليهِ، ووقوعِ النَّومِ في أثنائِهِ، ولمناسبةِ اللَّيلِ للظِّلِّ، وعُكِسَ في سورةِ النَّبأِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: 9 - 11]؛ ليتَّصلَ اللَّيلُ بالنَّهارِ بعدَهُ، والنَّومُ بالأزواجِ الَّتي هي راحةٌ لهُم[2].

وقيلَ: تقديمُ الاعتبارِ بحالةِ سَتْرِ اللَّيلِ على الاعتبارِ بحالةِ النَّومِ؛ لمراعاةِ مناسبةِ اللَّيلِ بالظِّلِّ، بخلافِ ما في سورةِ النَّبأِ، فإنَّ نعمةَ النَّومِ أهمُّ مِنْ نعمةِ السَّترِ، ولأنَّ المناسبةَ بينَ نعمةِ خَلْقِ الأزواجِ وبينَ النَّومِ أشدُّ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 399.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 427.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 45.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»